

# البحث عن الهوية.. في ظل ديمقراطية العبيد

هل هناك من فسحة لأخلاقنا لأن نتنفس لنقول  
(شكراً) للسائق.. أو لعابر السبيل الذي يتنحى جانباً  
لنمر..!!

إذا تنحى الطغاة جانباً فسنعبر إلى ضفة الوطن  
لنقول لهم (شكراً).. وبعدها وداعاً وإلى الأبد..  
كتب أحد الأمريكيين يقول إن الولايات المتحدة  
ليس بإمكانها القيام بما كانت تقوم به روما-فكرة  
المواطنة-ففي الإمبراطورية الرومانية كان كل من  
يخضع لسيطرتها يصبح مواطناً بالضرورة) وهو شيء  
اقرب إلى المستحيل بالنسبة للولايات المتحدة  
والعراقيين. يقول أيضاً نحن نريد أن نعطي لهم ثمار  
الحضارة وليس الحضارة بحد ذاتها.. إذ يحرم عليهم  
ذلك! وفيما لو جرى تطويع هذه الفكرة ضمن السياق  
السياسي فإنها تعني إن الولايات المتحدة تريد  
ديمقراطية العبيد!!(1)

في الصحف وفي خضم النقاشات التي كانت تدور  
في المنتديات الثقافية طرحنا فكرة أن يقود الثقافي  
السياسي وقد عددنا الأسباب والتجارب التي مرت بها  
هذه الفكرة عبر العصور ولكن للأسف!! فمعظم  
الطروحات التي كنا نسمعها كانت سطحية وبسيطة  
وكاننا سنأتي ببديل شخصي جاهز ليحل المثقف مكان  
السياسي في قيادة هذه الأمة.

إننا بالتأكيد لن نأتي بهذا البديل فهو ليس البديل  
الموضوعي فالمثقف يمتلك الحس الأخلاقي والمهوية



◆ عبد الهادي فنجان الساعدي

بغداد

والمعرفة التي تقف حاجزا بينه وبين ممارسات السياسيين التي لا تعتمد (الصدقات الدائمة أو العداوات الدائمة..إنما المصالح الدائمة)(2) . هل بمقدور السياسي أن يستوعب كل هذا الكم الهائل من الزيف والتاريخ المليء بهذه الجبال من المأسي والخذاع!!

لقد طرحنا في أحد الاجتماعات الثقافية التي كانت تبحث عن تأسيس ملتقى ثقافي يضم كل المثقفين العراقيين من الشمال إلى الوسط والجنوب إشكالية الثقافي والسياسي وكانت وجهة النظر تلك تحمل الكثير من الحقيقة إلا أنها في نفس الوقت كانت فكرة معقدة لا يمكن فهمها إلا بان نخرج من هذا الزمن لندخل في زمن مستقبلي آخر لكي نستوعب الفكرة بسلاسة ودون تأثير أزمة إدمان الاستبداد واللعنة التي عشناها ولم نستطع لحد الآن أن نخرج من مفاهيمها.

لقد طرحنا الكثير من المؤسسات الصديقة والكاذبة مسألة الهوية العراقية للإنسان العراقي!! وكانت المعالجات كثيرة وعميقة وشارك بها الكثير من الأساتذة والمختصين وقدمت دراسات معمقة وناضجة..

كيف سنتشكل الهوية للمواطن العراقي ونحن نسبح على بحيرة من الدم وتعلونا غيوم مشبعة برائحة البارود، لقد أصبح تراب البلد مزيجا من الدم والتراب والنقط والرصاص فكيف سنجد هوية الإنسان العراقي بعد أن فقد حتى السقف الذي يستظل به. إننا نمر بكوارث أفقدتنا الحس الجمعي بالبحث عن الهوية.

كيف سنتشكل الهوية للمواطن العراقي ونحن نسبح على بحيرة من الدم وتعلونا غيوم مشبعة برائحة البارود، لقد أصبح تراب البلد مزيجا من الدم والتراب والنقط والرصاص فكيف سنجد هوية الإنسان العراقي بعد أن فقد حتى السقف الذي يستظل به. إننا نمر بكوارث أفقدتنا الحس الجمعي بالبحث عن الهوية.

(عندما ننظر إلى التاريخ العراقي الحديث فإن مجمل حصيلته على امتداد القرن العشرين تشير إلى أنه مازال يواجه نفس إشكالية ظهوره الأول أي قضية الدولة والوحدة الوطنية والنظام السياسي والعلاقة بالمحتل وقضية الأقليات القومية بمعنى مراوحته في الزمن فقط فهو يقف عارياً أمام الرؤية النقدية كما إنه بلا تاريخ أي بلا حكمة على الإطلاق)(4)

في حديث مع بعض الأصدقاء المثقفين أجمعوا بعنف على أن هذا الشعب يتكون من مجموعات غير متجانسة وأعراق غير متشابهة ولهذا فلن يستطيع هذا الشعب أن يعيش سوية!!

لقد ألمني ذلك القصور في النظرة المستقبلية والبحث في تجارب الشعوب الأخرى كثيرا لأن

والمعرفة التي تقف حاجزا بينه وبين ممارسات السياسيين التي لا تعتمد (الصدقات الدائمة أو العداوات الدائمة..إنما المصالح الدائمة)(2) . هل بمقدور السياسي أن يستوعب كل هذا الكم الهائل من الزيف والتاريخ المليء بهذه الجبال من المأسي والخذاع!!

لقد طرحنا في أحد الاجتماعات الثقافية التي كانت تبحث عن تأسيس ملتقى ثقافي يضم كل المثقفين العراقيين من الشمال إلى الوسط والجنوب إشكالية الثقافي والسياسي وكانت وجهة النظر تلك تحمل الكثير من الحقيقة إلا أنها في نفس الوقت كانت فكرة معقدة لا يمكن فهمها إلا بان نخرج من هذا الزمن لندخل في زمن مستقبلي آخر لكي نستوعب الفكرة بسلاسة ودون تأثير أزمة إدمان الاستبداد واللعنة التي عشناها ولم نستطع لحد الآن أن نخرج من مفاهيمها.

(كان المنصور يقول: ما أحوجني أن يكون على بابي أربعة نفر، لا يكون على بابي أعف منهم، هم أركان الدولة ولا يصلح الملك إلا بهم أما احدهم فقاوض لا تأخذه في الله لومة لأثم والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوي والثالث صاحب خراج يستقصي ولا يظلم الرعية.

ثم عض على إصبعه السبابة ثلاث مرات يقول في كل مرة.. أه.. أه.. قيل من هو يا أمير المؤمنين؟ قال: صاحب بريد يكتب خبر هؤلاء على الصحة)(3)

لقد كان المنصور يبحث عن تكوين ثقافي يمتلك الكفاءة والنزاهة ليخلق هذا التكوين كل أولئك القادة السياسيين الذين سيقودون البلد إلى مرحلة البداية نحو التطور.

وعندما نطبق القياسات على الوضع المالي الحالي نجد باننا نحتاج إلى كيانات ثقافية بإمكانها أن تخلق قادة وسياسيين بإمكانهم أن يبرعوا في قيادة مراكزهم السيادية والخدمية.

إن كل ما يجري في البلد هو نتيجة التشكيلات السياسية التي لا تمتلك الحصانة الثقافية أو

## البحث عن الهوية..

حتى أصبح جزءاً فائضاً عن الحاجة لا يفكر إلا في مسائل الحيض والاستحاضة والشكوك وإبعاد حوض الكر.

إن البحث عن الهوية لا يتم إلا بعد أن نعيد للفكر والتفكير العقلاني قيمتهما الحقيقية ونعترف لكل الأجيال القادمة نيابة عن الأجيال السابقة لنضع أقدام الأطفال على بداية الطريق الحقيقي وإلا فسنبقى نلقنهم أول دروس السقوط مع بداية تلقيهم الأحرف الهجائية.. والأرقام الفردية والزوجية دون أن ندلهم على أن هذه الحروف ليست نهاية العالم.. وأن هذه الأرقام تبدأ ولا تنتهي.

إن التأكيد (باستحالة تأسيس منظومة الإصلاح الشامل في العراق المعاصر دون منظومة من المرجعيات الثقافية)(5) أصبحت من الأساسيات في النظرة الى كل تغيير سياسي اجتماعي وهذا يؤكد ما ذهبنا اليه في الهدف من خلق كيانات ثقافية من أجل أن تعمل هذه الكيانات على خلق قادة سياسيين يمتلكون الوعي الوطني والفكر العقلاني الذي بإمكانه أن يخلق الهوية العراقية بعد أن يعيد خلق الإنسان العراقي من خلال صياغة قوانين جديدة للحياة تعيش كل هذه الاثنيات والأعراق والطوائف بظلالها دون أسلحة ودون دم...

الكثير من شعوب الأرض تعيش وهي لا تمتلك مقومات القومية الواحدة إنما هي أعراق مختلفة وإثنيات مختلفة لا تجمعها اي رابطة إنما يجمعها التجاوز النقدي لكل النرجسيات الذاتية القومية والاثنية وهي نقطة البدء في عملية التعايش السلمي بين الأعراق المختلفة في البلد الواحد.

إننا بالتأكيد لا نحتاج إلى المستبد مهما كان عادلاً أو غير عادل فلقد تجاوزت الأمم مرحلة القائد الضرورة والمستبد العادل والبطل القومي. فليس هناك بطل قومي ولا مستبد عادل في كل هذه الخارطة الممتدة من الأطلسي إلى مرتفعات أفغانستان الشرقية.. لأن شعوب هذه المناطق مصابة بعاهات عديدة وأمراض توارثتها جيلاً بعد جيل ونفوس مليئة بالعقد المستعصية حيث الفكر العقلاني منذ القرن السابع الهجري لأن التتار لم يحتلوا بغداد ولم يقتلوا المستعصم بالله العباسي إنما نحن الذين قتلنا الفكر ووضعناه على طبق تقليدي وقدمناه إلى الخليفة العباسي مع فتاوى علماء السلطة وقادة التكفير السلفي ليصبم عليه بخاتمه الذي ختم به قبل أيام على قرار قتل الفكر والفلسفة والمنهج النقدي الإبداعي لكل المذاهب التي كانت تحاول لتأسيس عالم يبصر ويفكر ويبدع.. إلا أن الخليفة وكل فقهاء السلطة أصروا على اتباع أسلوب التقليد والتلقين تاركين العقل دون استعمال

## الهوامش

(1)ميثم الجنابي- أشجان وأوزان الهوية العراقية- دار ميزوبوتاميا- ص25

(2) يقول رئيس الوزراء البريطاني الأسبق ونستون تشرشل(ليس هناك صداقات دائمة ولا

عداوات دائمة إنما هناك مصالح دائمة).

(3) نفس المصدر

(4) كتاب اشجان، ص94-93، ميثم الجنابي.

(5) نفس المصدر السابق ص113